نور المسيح وتجلي الإنسان

الأرشمندريت بطرس، رئيس دير القديس يوحنا المعمدان، أسكس، بريطانيا

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن لعيد التجلي كلمة خاصة لزمننا، لأنه يكشف لنا المجد الذي سبق الله فعيّنه للإنسان منذ البدء. وهذا مهم جداً لأننا نعيش في زمن نشهد فيه تدهوراً كبيراً للإنسان. لقد فقد الناس هدفهم وإلهامهم في الحياة، فيأتي هذا العيد ليعطينا الطريق للخروج من هذا المأزق.

بعد وقت قصير من اعتراف الرسول بطرس بألوهية الرب، قال المسيح: "إن هنا بينكم قوما لن يذوقوا الموت حتى يروا ملكوت الله آتياً بقوة." "ملكوت الله يأتي بقوة" أعقبها حدث التجلي. يعلّق الأب صفروني أن شهادة بطرس أظهرت أن التلاميذ قد ازدادوا في الإيمان والمحبة للمسيح، مما جعلهم مؤهَّلين لتلقي الإعلان في ثابور. ويوضح الأب صفروني أيضاً أن طبيعة صلاة المسيح في ثابور كانت مشابهة لصلاته في الجثسمانية، وفي حرارة هذه الصلاة تجلى أمام التلاميذ.

لذلك، ليس إيمان التلاميذ ومحبتهم وحسب، بل الأهم من ذلك أن صلاة المسيح فتحت أعينهم ليروا مجده، حتى لا يصيبهم اليأس مطلقاً عندما يرونه مصلوباً. يقول الإنجيل أن "سحابة منيرة ظللتهم"، ويوضح الأب صفروني أن هذا كان نور الروح القدس ونفَسَه. ثم سُمع صوت الآب من السحابة، وكانت هذه ذروة الإعلان.

إن التجلي هو، بطريقة ما، عيد صلاة. إنه عيد عزيز جداً على الهدوئيين لأنه يمجّد الصلاة. إن الذين يكرّسون حياتهم للوقوف في حضرة الله وذهنهم في القلب، يدخلون في شركة مع نعمة الله، التي غالباً ما يختبرونها كالنور [لاحظ هنا أل التعريف: المترجم]. ظهر موسى وإيليا على ثابور، لأن المسيح كان حاضراً، وهو ملء الشريعة والأنبياء الذين يمثلانهما.

[تعليق للأرشمندريت زخريا: يؤكد الأب صفروني أننا نتلقى درساً عظيماً من أيقونة التجلي حيث نرى المسيح في الوسط وموسى وإيليا ممثلَي العهد القديم يقفان بجانبه ويسجدان كخادمَين. يقف المسيح في الوسط بصفته الله القدير، باعتباره المصدر الوحيد لكل إعلان، باعتباره مركز رسالة كل التاريخ المقدس من بداية العالم إلى نهاية الزمان. فيه يتّحد العهد القديم بالجديد، لأنه هو المصدر الوحيد لكل إعلان ككلمة الله في كلا العهدين.]

لكن موسى وإيليا ظهرا أيضاً على ثابور لأنهما كانا طوال حياتهما يصارعان الله، ويسعيان باستمرار إلى فهم أحكامه. عندما طلب موسى من الله أن يظهر له نفسه على جبل سيناء، حقق الله رغبته وسمح له برؤية "وراءه" فقط. (خروج ٣٣:١٢-٢٣). كان جبل سيناء مغطىً بسحابة

داكنة، أما اليوم فنرى ثابور مغطى بسحابة لامعة، مما يدلّ على أن هذا الظهور كان أعظم بكثير من أي إعلان في العهد القديم. مشى إيليا أربعين يوماً حوريب مُصلِّياً، وهناك أظهر له الله نفسه في "صَوْت مُنْخَفِض خَفِيفٌ " (الملوك الأول ١٢:١٩). إذ تعلم هذان النبيَّان التحدث مع الله في هذه الحياة، رافقتهما الصلاة في الأبدية، لذا نراهما الآن على ثابور واقفين بجانب كلمة الله، يتحدثان معه وجهاً لوجه، مثل آدم قبل السقوط.

لذلك، يعلّمنا عيد التجلي أن ما ننتظره في الأبدية يبدأ من هذه الحياة: إذا لم نكتسب خبرة الوقوف في حضرة الله والتحدث معه بدءاً من هذه الحياة، فليس من المؤكد أن نحظى بهذه الخبرة في الأبدية. يعبِّر الأب صفروني عن ذلك بشكل أكثر وضوحاً: ''إذا لم أغيّر نفسي من هذه الحياة وأصبح مثل الله، فكيف أتوقع أن أكون معه إلى الأبد؟''

إن سرّ التجلّي يعمل دائماً في الكنيسة، إذ إن المسيح يتجلّى باستمرار أمامنا. لدينا ثلاث وسائل رئيسية للدخول إلى حضرة الله: اسمه، وكلمته، والقداس الإلهي. إن استدعاء اسم المسيح بشكل مستمر هو مهمة شاقة، ولكن، يبدو الأمر أحياناً وكأن المسيح يفتح أعين قلوبنا، ونشعر بقوة الحياة الإلهية التي يحملها اسمه. ثم نقف في حضرته الإلهية التي تطهّرنا وتنيرنا وتقدسنا. دعا القديس سلوان اسم المسيح أمام أيقونته، وفي مكانها رأى المسيح الحي.

كثيراً ما نقرأ كلمات الكتاب المقدس، ولكن تأتي لحظة تتجلّى فيها إحدى هذه الكلمات أمامنا، لتكشف كل سرّ الله وكل سقوطِنا، وتجعل أنهاراً من المياه [الدموع] تتدفق من أعيننا. في الطريق إلى عمواس، فتح المسيح عيني لوقا وكليوبا ليفهما الكتاب المقدس بقلب متقد. قال الشيخ خارالامبوس أنه في كل مرة كان يحتفل فيها بالقداس الإلهي كان يفهم جانباً مختلفاً منه. في الواقع، إن سر المسيح لانهائي، ولا يمكننا أبداً إدراكه بالكامل.

على ثابور، أشرق المسيح أولاً كالشمس، ورآه التلاميذ جسداً. ولكن عندما ظللتهم السحابة، رأوه روحاً، فانتقلوا مما هو جسدي وبشري إلى ما هو روحي وإلهي. وبالمثل، فإنه لا يكفي أن نقول إننا نؤمن؛ وفي اقترابنا من سر المسيح، علينا أيضاً أن نختبر في هذه الحياة العبور من الجسد إلى الروح، ومن البشري إلى الإلهي.

وإذا مُنِحنا "الدُخُول إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّنَا وَمُخَلِّصِنَا بِسِعَةٍ" (٢بطرس ١١:١) في هذه الحياة، فلماذا لا نسعى ما في وسعنا لنَيلِ ذلك؟ لا ينبغي أن نتراجع بحجة التواضع الزائف، وفكرةِ أننا غير مستحقين، فإن طروبارية العيد تقول: "فأشرق لنا نحن الخطأة نورك". سوف نقتني تواضعاً حقيقياً وتوبة صادقة عندما نعاين الأبعاد الحقيقية لدعوتنا وندرك إلى أي مدى نحن بعيدون عنها. لقد زرع الله في نفوسنا التعطّش للسعي إليه، ولذلك فمن الطبيعي أن يبحث الإنسان عن شيء

"آخر" مغاير لما تراه عيناه الجسدية. وهذا الشيء الآخر المختلف يُعطى له في شركة النعمة التي بها يُلبَس مجد الله البهي، ثوب الجلال (مزمور ١:٩٣) الذي هو نور ثابور.

أثناء إقامة المسيح المؤقتة في الجسد، كان الكثيرون قادرين على رؤيته بأعينهم، لكن قليلين هم الذين استطاعوا رؤية المجد الذي كان يحمله في داخله. وكان من بينهم، أولاً وفي المقام الأول، والدة الإله. عندما كان القديس يوحنا المعمدان يعمّد في نهر الأردن، كان هو الوحيد الذي استطاع أن يرى هذا المجد في المسيح: "هوذا حمل الله" (يوحنا ٢٩:١). لقد أدرك دينونة الله في هذا المجد، أي أن المسيح قد جاء إليه ليحمل خطيئة العالم. مثله شُرِّف بطرس ويعقوب ويوحنا برؤية هذا المجد في ثابور. حتى هذا اليوم، وفي كل جيل، قليلون هم الذين يعاينون مجد التجلي مثل التلاميذ؛ وربما عددهم هو أقل من عدد الذين يسمعون صوت الله أيضاً. يصير هؤلاء القلائل بصلاتهم خميرة "تخمّر العجين كله" (١كورنثوس ٦:٥)، أي العالم كله.

في نور ثابور، يصبح الإنسان وسيطاً بين الله وإخوته، وكهنوتاً ملوكياً، يخدم مصالحته مع الله، كما خلاص العالم كله. في الكنيسة الأرثوذكسية، هناك سلسلة متواصلة من التقليد مؤلّفة من هؤلاء الآباء القديسين الذين اختبروا نور الله. ربما لن يرى الكثير منا نور الله هذا أبداً؛ لأنه لا يعطي نعمته بدون تمييز، عالِمين أننا فعلة بطّالون. ليس من قبيل الصدفة أن نرنم كاطافاسيا الصليب في التجلي، لأنّ بالصليب يصبح نور ثابور مُلكَنا الأبدي. يقول الله الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا" (متى ٥:١٧) أي: "أطيعوه". حيثما توجد طاعة لوصية إلهية، فإن سر الصليب يعمل أيضاً.

إذاً، نحن مدعوون لسماعه، أي لأن نتبعه في رحلته من ثابور إلى الجلجلة. بالواقع، إن نور ثابور هو صلب كامل لِمَن يختبره.

سؤال: هل سحابة النور هي وصف مجازي (apophatic) لظهور مجد الله؟

الأرشمندريت بطرس: نعم، إنه أمر مجازي، لكنه يحمل مضموناً تشبيهياً (cataphatic). سمع القديس بولس "كلمات لا يُنطَق بها"، لكنه سمعها بالفعل. كثيراً ما نقرأ عند الآباء القديسين أنهم رأوا نوراً "فوق النور"، لأنه لا يوجد مصطلح أرضي يمكن أن يصف قوة الله غير المخلوقة. يقول القديس مكسيموس المعترف أن الإنسان يختبر السبت عندما يلِج حضرة الله؛ ولكن هناك أيضاً "سبت السبوت". على المثال نفسه، يصف أنبا عمّون صعود النبي إيليا إلى السماء، فيقول إنه بالمقارنة مع نور كل سماءٍ صعد إليها، كان النبي يشعر وكأن نور السماء التي تركها وراءه ظلمة.

حتى أننا نعبّر عن هذه الظاهرة بالطريقة التي نبني بها كنائسنا. نمر من الرواق إلى صحن الكنيسة، ومن ثم نصل إلى الهيكل، لإظهار هذا النمط التدريجي من الإعلان.

سؤال: عندما نزل الرب وتلاميذه من الجبل، هل كانت الجموع تنتظره لأنهم أدركوا أن حدثاً عظيماً قد حدث؟

الأرشمندريت بطرس: قال أحدهم ذات مرة أنه حتى التلاميذ كان عليهم أن ينزلوا من الجبل ليفهموا أن ثابور لم يكن النهاية، مع أن بطرس أراد أن يبقى هناك إلى الأبد لو استطاع. إحدى الأسباب التي كانت تجعل الجموع تركض نحو المسيح في الإنجيل هو أنه كان يجذبهم إليه سرياً. من الممكن أنَّه بعد أن كشف الربُّ للتلاميذ عن مجده الأزلي في ثابور، أرادَ أن يحوِّل أذهانهم إلى الجموع التي سيخدمونها فيما بعد. إن النعمة تقود دائماً إلى خدمة الآخرين. رأى القديس سلوان مجدَ المسيح، وعلى الفور احتضن قلبُه العالمَ كله: "أسألك أيها الرب الرحوم، أن تعرفك جميع شعوب العالم [ليس فقط المسيحيين]". عندما يمنح الله نعمته لمختاريه، فإنه لا بدَّ وأن ينتدبَهم لخدمة الأعضاء الأضعف. هذا هو الهرم المقلوب في كنيستنا، حيث الأعضاء الأقوياء يخدمون الضعفاء، على مثال المسيح، الذي "جاء لا ليُخدم بل ليَخدم" (متى ٢٨:٢٠).

سؤال: كيف يمكنني أن أشتغلَ على نفسي اليوم لأصبح إناءً مُعَدّاً للنور غير المخلوق؟

الأرشمندريت بطرس: نحن لا نسير في طريقنا الروحي بهذا الهدف. هدفنا الرئيسي هو أن نتصالح مع الله وأن نزيل من كياننا كل العوائق التي تمنعنا من الانتماء إليه. لا يقول الأب صفروني أن الإنسان يتألّه عندما يعاين نور الله، بل عندما تصبح وصية المسيح هي القانون الوحيد لوجوده. يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث، الذي كانت لهُ خبرة عظيمة ونادرة جداً للنور غير المخلوق، إن الله لن يمنحنا مثل هذه الخبرة لأننا نستعد أو لأننا نصوم؛ إنه يمنحها للمتواضعين في الروح. حتى عندما يغمر النور أولئك الذين اقتنوا التواضع الحقيقي، فإنهم لا يحوّلون انتباههم إليه، لأن في قلوبهم جرحَ محبةٍ عميقاً جداً لمعطي كل صلاح. في مقال جميل عن تجلي المسيح، يستخدم الأب زخريا مثال القديس سلوان ليبيّن أنه عندما ينكشف نور الله للإنسان، فإنه من محبته لله يصبح كالذي فقد عقله. لا يعود بإمكانه تحويل ذهنه إلى أي شيء من هذا العالم، بل يصبح مُستغرقاً دائماً بفكر الله، لأن المحبة هي "غَايَةَ النَّامُوسِ" (أنظر رومية ٤:١٠).

سؤال: متى أدرك المسيح، بعد ولادته في هذا العالم، أنه ابن الله؟

الأرشمندريت بطرس: عندما زارت والدة الإله أليصابات، ارتكض القديس يوحنا المعمدان كجنينٍ في بطنها، إذ قد تعرّف إلى المسيح في بطن العذراء القديسة (لوقا ١:٤١و٤٤). وبالتالي، لا يمكن للمسيح أن يجهل لاهوته على الإطلاق. يقول داود إنه جاء إلى هذا العالم بنِيّة واحدة: "هأَنَذَا جِئْتُ... أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ" (مزمور ٤٠:٧-٨). وقد رآه إشعياء بعينه الصافية النبوية، قائلاً إنه، منذ ولادته، قبل أن يميّز بين الخير والشر، اختار الخير بشكلٍ كاملٍ ومطلق (أنظر أشعياء ٧:١٥). وكذلك، فإن المسيح في حياته على هذه الأرض كان كاملاً في كل مرحلةٍ عمرية. لم يكن كائناً مِسخاً يُظهر حكمةَ شخص بالغ في سن الرضاعة لكونه المسيح وابن الله. كان طفلاً كاملاً عندما كان عمره سنة واحدة، وكذلك في الثانية عشرة من عمره عندما نراه يعلّم في المجمع (أنظر لوقا ٢:٤٢-٤٧)، وكان رجلاً كاملاً في سن الثلاثين عندما بدأ كرازته العلنية. وإذ أنه أقنوم إلهي واحد، كان الرب إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً في كل مرحلة.

سؤال: كيف يمكننا أن نكتسب روح ethos الله؟

الأرشمندريت بطرس: لكي نكتسب روح الله نحتاج إلى الشركة مع نعمة الله. عندما استمر الهدوئيون في الصلاة النقية، اتسعت قلوبهم؛ وقد انتقلت إليهم خصائص الله: التواضع، والمحبة، والوداعة، وأصبحت إرادة الله في خلاص الجميع هي أيضاً إرادتهم. وهكذا اكتسبوا روح المسيح وصاروا يتشفّعون لخلاص العالم كله. المثال الأكثر كمالاً هو القديس بطرس. ما هو أول شيء فعله بعد أن تلقّى لسان المعزي الناري؟ التفت إلى الجمع وقال: "أيها الإخوة، الْمَوْعِدَ هُوَ لَكُمْ" (أعمال ٢:٣٩). لم يكتفِ بذاته، بل التفت إلى الآخرين مباشرةً. هذه هي روح الله. إذا تلقينا حقاً نعمةً من الله، فسوف تظهر في تواصلنا مع إخوتنا: فالوصية الثانية تكشف ما إذا كنا قد حفظنا الوصية الأولى.

سؤال: ماذا لو خشينا أن نفقد النعمة التي نلناها؟ ما هو دور هذا الخوف؟

الأرشمندريت بطرس: مخافة الله هي هبة وقائية. إذ نعلم أننا ضعفاء وساقطون، فإننا نخاف أن نسيء إليه (إلى الله) بقذارتنا ورجاستنا، وأن نحزِن روحه بحياتنا وأفكارنا وسلوكنا وكلامنا. لهذا استطاع القديس يوحنا اللاهوتي والقديس أنطونيوس الكبير أن يقولا: "لم أعد أخاف الله لأنني أحبه"، "المحبة تطرد الخوف" (١يوحنا ٤:١٨) ولكن الطريق إلى المحبة الإلهية تمرّ عبر مخافة الله. إن الخوف من فقدان النعمة قد يظهر بالفعل نقصاً لأننا لم نعرفه كأبٍ لنا. الأطفال الثلاثة هُدِّدوا بإلقائهم في أتون بابل، لكنهم قالوا للملك نبوخذنصر: "إن إلهنا الذي نعبده قادر على أن ينقذنا،

وهو ينقذنا. ولكن حتى لو لم يدافع عنا، لا نعبد آلهتك، ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته" (أنظر دانيال ٣:١٣-١٨). هكذا هي المحبة التي تطرد الخوف: فإذا عشنا أو متنا، قلوبنا تنتمي إليه وتحبّه حتى الموت. عندما يعرف الإنسان الله كأبٍ له، يسلّم حياته له بالكامل.

سؤال: كيف يمكن لشخص صغير أن يرى النور غير المخلوق وكيف يمكن لهذا الشخص أن يستمر في عيش حياة "طبيعية" بعد هذا الحدث؟ هل سيحتاج هذا الشخص إلى مزيد من التوجيه؟

الأرشمندريت بطرس: قال الرب: "لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ" (متى ١٨:١٠)، لأنه هكذا هو الرب نفسه. إنه لا يحتقر أحداً وخاصةً الصغار. كثيراً ما كان الأب صفروني يقتبس هذه الآية: "هذَا الْمِسْكِينُ صَرَخَ، وَالرَّبُّ اسْتَمَعَ لهُ" (مزمور ٣٤:٦) في إشارة إلى نفسِه، هو الذي لم يحتقره الله. يمنح الله رؤية النور غير المخلوق لأولئك الذين سوف يستجيبون بشكل صحيح متى حصلوا على الهبة، فتكون لتقديسهم وخلاص كثيرين آخرين من حولهم. ومن المؤكد أن الإنسان بحاجة إلى طلب الإرشاد بعد حصوله على مثل هذه الهبة. بدون الإرشاد الروحي من شخص اقتنى المعرفة بهذه التجربة، يكون طريق الإنسان شاقاً. لم يكن للقديس سلوان شيخ يؤكد خبرته، لكنه جعلها تعلّماً من الرب مباشرة. ومع ذلك، كما يقول الأب صفروني، فإن كثيرين لم ينجحوا، لا بل إن البعض فقدوا عقلهم. إذا نالوا نعمة الكاملين في البداية ثم لم يحظوا بإرشاد، فإنهم لا يعرفون كيف يعيشون، لأنهم لا يعرفون طرق خلاص الله. يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث: إن الصلاة بالتأكيد هي الطريق الذي يؤدّي إلى خبرة نور التجلي. لكن الصلاة ليست كافية. يحتاج الإنسان أيضاً إلى إيجادِ مرشدٍ روحيٍ ووضعِ نفسه تحت طاعته، لأنه حتى لو كان الأب الروحي غير مستحق، فمن الأفضل دائماً أن يكون الإنسان تلميذاً من أن يكون متسلطاً على نفسه.

Source: Archimandrite Peter, Abbot of Monastery of St John the Baptist, Essex UK. The Light of Christ and the Transfiguration of Man. Pemptousia. 11 August 2023. https://pemptousia.com/2023/08/the-light-of-christ-and-the-transfiguration-of-man/